(إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)

(حديث شريف)

مكارم الأخلاق

لفضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح بن عثيمين

رحمه الله

إعداد وترتيب

خالد أبو صالح

دار الإيمان

للطبع والنشر والتوزيع

إسكندرية ت ٥٤٥٧٧٦٩

مكارم الأخلاق

بقلم فضيلة الشيخ

محمد بن صالح بن عثيمين

دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
إسكندرية ت: ٥٤٥٧٧٦٩ـ ٥٤٤٦٤٩٦


بسم الله
الرحمن
الرحيم

رقم الإيداع ١٨٨٨١ / ٢٠٠١

الترقيم الدولى

977-331-062-0

دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
١٧ ش خليل الخياط - مصطفى كامل
إسكندرية ت: ٥٤٥٧٧٦٩ - ٥٤٤٦٤٩٦

تقـــديم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٢] .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾ [النساء : ١] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً (٧١) ﴾[الأحزاب : ٧٠ : ٧١] .

أمابعد .. فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى ، وخير الهدي هدي محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار .

وبعد : فإنه ما من شريعة سماوية إلا وحثَّت على التخلق بالخلق الفاضل القويم، وحذرت من التخلق بمساوئ الأخلاق ورذائل

الصفات . وما من كتاب نزل من عند الله إلا وأرشد إلى حسن الخلق . وما من رسول أرسله الله تعالى إلا ودعا إلى ملازمة محاسن الأخلاق وكرائم الخصال والفعال .

ولقد حظيت الشريعة الإسلامية من ذلك بأوفر الحظّ والنصيب ، فحثَّ القرآن الكريم على حسن الخلق في كثير من آياته ، وبين الرسول الكريم ﷺ أن الخلق الحسن من أثقل ما يوضع في ميزان العبد يوم القيامة ، وأن أهل الخلق الحسن هم أقرب الناس منه ﷺ منزلة يوم القيامة .

وكما كان النبي ﷺ يدعو الناس بلسان مقاله ، فإنه أيضًا كان يدعوهم بأخلاقه وكريم فعاله ، فليس الإسلام نصوصًا تحفظ فحسب ، وليس الالتزام مجرد دعوى يدعيها كلُّ أحد لا رصيد لها في واقع الحياة .

فالدعاوى مالم يقيموا عليها
بينات أصحابُها أدعياءُ

وإنما الإسلام منهاج حياة يجب أن يشمل جوانب الحياة كلها : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [سورة الأنعام ، الآيتان ١٦٢ ، ١٦٣] .

ولأهمية هذا الموضوع جاءت هذه الرسالة !

جاءت لتحث المسلمين على العودة إلى أخلاق النبوة وسلفهم الصالح . جاءت لتبين عظمة الإسلام وكماله وشمولية أحكامه

وتشريعاته . جاءت حرصًا من فضيلة شيخنا الفاضل الشيخ محمد بن صالح العثيمين ـ حفظه الله ونفع بعلمه ـ على توجيه شباب الإسلام للتمسك بما جاء في كتاب الله تعالى ، وبما صح من سنة رسوله ﷺ ، وبما كان عليه الصدر الأول من الصحابة والتابعين ، الذين هم خير القرون من التحلي بمكارم الأخلاق ، من صدق ، وتواضع ، ورحمة ، وشفقة ، وعفة ، وإحسان ، وبرّ ، ومن التخلي عن مساوئ الأخلاق ، من كذب ، وغيبة ونميمة ، وحقد ، وحسد ، وعداوة وبغضاء .

فشكر الله له صنيعه ، وجزاه عنا وعن الإسلام والمسلمين خير الجزاء ، ونفع الله بهذا الكتاب ، وجعله في موازين أعمالنا .

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

كتبه / راجي عفو ربه الغفور

أبو صالح خالد بن مصطفى سالم

حامدًا الله تعالى ، ومصليًا على نبينا محمد ﷺ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضلَّ له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله . بعثه الله تعالى بالهدى ودين الحق ، ليظهره على الدين كلّه ، بعثه الله تعالى بين يدي الساعة بشيرًا ونذيرًا ، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا ، فبلّغ الرسالة ، وأدّى الأمانة ، ونصح الأمة ، وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين ، ووفق الله من شاء من عباده فاستجاب لدعوته ، واهتدى بهديه ، وخذل الله بحكمته من شاء من عباده ، فاستكبر عن طاعته ، وكذّب خبره ، وعاند أمره ، فباء بالخسران والضلال البعيد .

أما بعد : فبحثنا هذا يدور حول الحديث عن حسن الخلق ومكارم الأخلاق .

والخلقُ : هو السَّجيَّةُ والطبع [(١)] ، وهو كما يقول أهلُ العلم : صورةُ الإنسان الباطنة ، لأنَّ للإنسان صورتين [(٢)] :

---

(١) قال ابن الأثير في النهاية (٢/ ٧٠) الخُلق بضم اللام وسكونها : الدين والطبع والسجية . وحقيقته : أنه صورة الإنسان الباطنة وهي نفسه وأوصافه .

(٢) قال القسطلاني : اعلم أن الأخلاق جمع خُلُق ، بضم الخاء واللام ، ويجوز إسكانها [خُلْق] . قال الراغب : الخَلْق والخُلُق بالفتح وبالضم في الأصل بمعنى واحد ، كالشَّربُ والشُّرب ، ولكن خُصَّ الخَلق الذي بالفتح بالهيئات والصور المدركة بالبصر . وخصَّ الذي بالضم بالقوى والسجايا المدركة بالبصيرة . أهـ . شرح المواهب اللدنية (٤/ ٢٤٣) .

صورة ظاهرة : وهي شكل خلْقَته التي جعل الله البدن عليه ، وهذه الصورة الظاهرة منها ماهو جميل حسن ، ومنها ماهو قبيح سيِّئ ، ومنها مابين ذلك .

وصورة باطنة : وهي حالٌ للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال من خير أو شر ، من غير حاجة إلى فكرٍ ورويّة .

وهذه الصورة أيضًا منها ماهو حسن إذا كان الصادرُ عنها خلقًا حسنًا ، ومنها ماهو قبيح إذا كان الصادر عنها خلقًا سيئًا ، وهذا ما يُعبّر عنه بالخُلُق ، فالخلق إذن هو الصورة الباطنة التي طبع الإنسان عليها .

والواجب على المسلم أن يتخلق بمكارم الأخلاق أي أطايبها ، والكريم من كل شيء هو الطيب منه بحسب ذلك الشيء ، ومنه قول الرسول ﷺ لمعاذ : « **إياك وكرائم أموالهم** »[1] حين أمره بأخذ الزكاة من أهل اليمن .

فعلى الإنسان أن تكون سريرته كريمة ، فيحبُّ الكرم والشجاعة والحلم والصبر ، وأن يلاقي الناس بوجه طلق وصدر منشرح ونفس مطمئنة ، فكل هذه الخصال من مكارم الأخلاق .

وقد قال النبي ﷺ : « **أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا** »[2] فينبغي أن يكون هذا الحديث دائمًا نصب عين المؤمن ، لأن الإنسان إذا علم بأنه لن يكون كامل الإيمان إلا إذا أحسن خلقه كان ذلك دافعًا له على التخلق بمكارم الأخلاق ومعالي الصفات وترك سفسافها ورديئها .

---

(١) أخرجه البخاري رقم (١٤٩٦) كتاب الزكاة . ومسلم رقم (٢٩) كتاب الإيمان .

(٢) أخرجه أبو داود رقم (٤٦٨٢) كتاب السنة . والترمذي رقم (١١٦٢) كتاب الرضاع وفيه زيادة : « وخياركم خياركم لنسائهم » وأحمد في المسند (٢/ ٤٧٢) وهو في صحيح الجامع رقم (١٢٣٠ ، ١٢٣٢) .

كمال الشريعة الإسلامية من ناحية الأخلاق

والنبي ﷺ أخبر أن من مقاصد بعثته إتمام محاسن الأخلاق ، فقال عليه الصلاة والسلام : « **إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق** »[(١)] .

فالشرائع السابقة التي شرعها الله للعباد كلها تحثّ على الأخلاق الفاضلة ، ولهذا ذكر أهل العلم أن الأخلاق الفاضلة مما أطبقت الشرائع على طلبه . ولكن هذه الشريعة الكاملة جاء النبي عليه الصلاة والسلام فيها بتمام مكارم الأخلاق ومحاسن الخصال . ولنضرب لذلك مثلاً :

مسألة : القصاص :

ذكر أهل العلم في مسألة القصاص ، أي لو أن أحدًا جنى على أحد فهل يقتصُّ منه أم لا ؟ ذكروا أن القصاص في شريعة اليهود حتميٌّ ولا بد منه ، ولا خيار للمجني عليهم فيه . وأن الأمر في شريعة النصارى بالعكس وهو وجوب العفو ، لكن شريعتنا جاءت كاملة من الوجهين ، ففيها القصاصُ وفيها العفو ، لأن في أخذ الجاني بجنايته حزمًا وكفّاً للشرّ ، وفي العفو عنه إحسانًا وجميلاً وبذل معروف فيمن عفوت عنه ،

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٢/ ٣٨١) والحاكم في المستدرك (٢/ ٦١٣) وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي . والبخاري في الأدب المفرد رقم (٢٧٣) . والبيهقي (١٠/ ١٩٢) وابن أبي الدنيا في : مكارم الأخلاق رقم (١٣) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ١٥) : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح وصححه أيضًا : الألباني في السلسلة الصحيحة رقم (٤٥) .

فجاءت شريعتنا والحمد لله مكمِّلة ، خَيرت من له الحق بين العفو والأخذ ، لأجل أن يعفو في مقام العفو ، وأن يأخذ في مقام الأخذ . وهذا بلاشك أفضل من شريعة اليهود التي ضيعت حقَّ المجني عليهم في العفو الذي قد يكون فيه مصلحة لهم ، وأفضل من شريعة النصارى التي ضيعت حق المجني عليهم أيضًا ، فأوجبت عليهم العفو وقد تكون المصلحة في الأخذ وإنزال العقوبة .

الأخلاق بين الطبع والتطبع

وكما يكون الخُلقُ طبيعة ، فإنه قد يكون كسبًا ، بمعنى أن الإنسان كما يكون مطبوعًا على الخلق الحسن الجميل ، فإنه أيضًا يمكن أن يتخلق بالأخلاق الحسنة عن طريق الكسب والمرونة .

ولذلك قال النبي ﷺ لأشجّ عبد القيس : « **إن فيك لخُلُقين يحبهما الله : الحِلْم والأناة** » قال يا رسول الله أهما خلقان تخلّقتُ بهما ، أم جَبلني الله عليها . قال : « **بل جَبَلك الله عليهما** » . فقال : الحمد لله الذي جبلني على خُلُقين يحبهما الله ورسوله »[(١)] .

فهذا دليل على أن الأخلاق الحميدة الفاضلة تكون طبعًا وتكون تطبُّعًا ، ولكن الطبع ـ بلا شك ـ أحسنُ من التطبع ، لأن الخلق الحسن إذا كان طبيعيّاً صار سجيّة للإنسان وطبيعة له ، لا يحتاج في ممارسته إلى تكلف ، ولا يحتاج في استدعائه إلى عناء ومشقة . ولكن هذا فضل الله يؤتيه من يشاء ، ومن حُرم هذا ـ أي من حُرم الخُلُق عن سبيل الطبع ـ فإنه يمكنه أن يناله عن سبيل التطبع ، وذلك بالمرونة والممارسة كما سنذكر ذلك إن شاء الله تعالى فيما بعد .

---

(١) أخرجه أبو داود رقم (٥٢٢٥) كتاب الأدب . وأحمد (٤/ ٢٠٦) وأخرج مسلم شطره الأول رقم (٢٥ ، ٢٦) كتاب الإيمان . والترمذي رقم (٢٠١١) كتاب البر والصلة .

من الأفضل ؟

وهنا مسألة وهي :

أيهما أفضل ؛ رجل جُبل على خلق حميد ، ورجل يجاهد نفسه على التخلق به فأيهما أعلى منزلة من الآخر ؟ ونقول جوابًا على هذه المسألة : إنه لاشك أن الرجل الذي جُبل على الخلق الحسن أكمل من حيث تخلُّقه بذلك ، أو من حيث وجود هذا الخلق الحسن فيه ، لأنه لا يحتاج إلى عناء ولا إلى مشقة في استدعائه ، ولا يفوته في بعض الأماكن والمواطن ، إذ أن حسن الخلق فيه سجية وطبع ، ففي أي وقت تلقاه تجده حَسَن الخلق ، وفي أي مكان تلقاه تجده حَسَن الخلق ، وعلى أي حال تلقاه تجده حَسَن الخلق ، فهو من هذه الناحية أكمل بلاشك .

وأما الآخر الذي يجاهد نفسه ويروضها على حسن الخلق ، فلا شك أنه يؤجر على ذلك من جهة مجاهدة نفسه وهو أفضل من هذه الجهة ، لكنه من حيث كمالُ الخلق أنقص بكثير من الرجل الأول .

فإذا رزق الإنسان الخلقين جميعًا ، طبعًا وتطبعًا ، كان ذلك أكمل ، والأقسام أربعة :

١ ـ من حُرم حسن الخلق طبعًا وتطبعًا .

٢ ـ من حُرمه طبعًا لا تطبعًا .

٣ ـ من رُزقه طبعًا وتطبعًا .

٤ ـ من رُزقه طبعًا لا تطبعًا .

ولاشك أن القسم الثالث هو أفضل الأقسام ، لأنه جمع بين الطبع والتطبع في حسن الخلق [(١)] .

---

(١) ويرى ابن القيم رحمه الله أن جميع الأخلاق الفاضلة تنشأ عن أمرين :
الأول : الخشوع .
الثاني : علوّ الهمة .
قال رحمه الله في كتاب الفوائد ص (٢١٠ ، ٢١١) : « وأما الأخلاق الفاضلة ، كالصبر ، والشجاعة ، والعدل ، والمروءة ، والعفة ، والصيانة ، والجود ، والحلم ، والعفو ، والصفح ، والاحتمال ، والإيثار ، وعزة النفس عن الدناءات ، والتواضع ، والقناعة ، والصدق ، والإخلاص ، والمكافأة على الإحسان بمثله أو أفضل ، والتغافل عن زلات الناس ، وترك الاشتغال بما لا يعنيه ، ولامةُ القلب من تلك الأخلاق المذمومة ونحو ذلك ، فكلّها ناشئة عن الخشوع وعلوّ الهمة . والله سبحانه أخبر عن الأرض بأنها تكون خاشعة ، ثم ينزل عليها الماء فتهتز ، وتأخذ زينتها وبهجتها ، فكذلك المخلوق منها إذا أصابه حظه من التوفيق . أ . هـ .

مجالات حسن الخلق

إن كثيرًا من الناس يذهب فهمه إلى أن حسن الخلق خاص بمعاملة الخلق دون معاملة الخالق ولكن هذا الفهم قاصر ، فإن حسن الخلق كما يكون في معاملة الخلق ، يكون أيضًا في معاملة الخالق ، فموضوع حسن الخلق إذن : معاملة الخالق جل وعلا ، ومعاملة الخلق أيضا وهذه المسألة ينبغي أن يتنبه لها الجميع .

* * *

أولاً : حسن الخلق في معاملة الخالق :

حسنُ الخلقِ في معاملةِ الخالقِ يجمع ثلاثة أمور :

١ ـ تلقي أخبار الله بالتصديق .

٢ ـ وتلقي أحكامه بالتنفيذ والتطبيق .

٣ ـ وتلقي أقداره بالصبر والرضا .

هذه ثلاثة أشياء عليها مدار حسن الخلق مع الله تعالى .

أولاً : تلقي أخباره بالتصديق ، بحيث لا يقع عند الإنسان شك أو تردد في تصديق خبر الله تبارك وتعالى ، لأن خبر الله تعالى صادر عن علم وهو سبحانه أصدق القائلين ، كما قال الله تعالى عن نفسه : ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴾ [1] . ولازم تصديق أخبار الله أن يكون الإنسان

(١) سورة النساء ، الآية : ٨٧ .

واثقاً بها، مدافعاً عنها ، مجاهداً بها وفي سبيلها ، بحيث لا يداخله شك أو شبهة في أخبار الله عز وجل وأخبار رسوله ﷺ .

وإذا تخلق العبد بهذا الخلق أمكنه أن يدفع أي شبهة يوردها المغرضون علي أخبار الله ورسوله ﷺ ، سواء أكانوا من المسلمين الذين ابتدعوا في دين الله ماليس منه ، أم كانوا من غير المسلمين ، الذين يلقون الشُّبه في قلوب المسلمين بقصد فتنتهم وإضلالهم .

* * *

ولنضرب لذلك مثلاً [**حديث الذباب**] :

ثبت في صحيح البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « **إذا وقع الذباب في شراب أحدكم فليغمسْه ثم ليطرحْهُ ، فإن في أحد جَنَاحَيْه داء وفي الآخر شفاء** »[1] .

هذا خبر صادر عن رسول الله ﷺ ، وهو ﷺ في أمور الغيب لا ينطق عن الهوى ، لا ينطق إلا بما أوحى الله تعالى إليه ، لأنه بشر ، والبشر لا يعلم الغيب ، بل قد قال الله له : ﴿ قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾[2] .

هذا الخبر يجب علينا أن نقابله بحسن الخلق ، وحسن الخلق نحو هذا الخبر يكون بأن نتلقاه بالقبول والانقياد ، فنجزم بأن ما قاله النبي ﷺ في

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٥٧٨٢) كتاب الطب . وأبو داود بنحوه رقم (٣٨٤٤) كتاب الأطعمة . وأخرجه ابن ماجه رقم (٣٥٠٥) كتاب الطب . وأحمد في المسند (٢/ ٢٤٦ ، ٢٦٣ ، ٣٤٠ ، ٣٥٥) .

(٢) سورة الأنعام ، الآية : ٥٠ .

هذا الحديث فهو حق وصدق وإن اعترض عليه من اعترض ، ونعلم علم اليقين أن كل ما خالف ما صح عن رسول الله ﷺ فإنه باطل ، لأن الله تعالى يقول : ﴿ فذلكُمُ اللَّهُ ربُّكُمُ الحقُّ فماذا بعْد الحقِّ إلاَّ الضَّلالُ فأنَّىٰ تُصْرفُون ﴾ (١) .

* * *

ومثال آخر [**من أخبار يوم القيامة**] :

أخبر النبي ﷺ « **أن الشمس تدنو من الخلائق يوم القيامة بقدر ميل** » (٢) . وسواءٌ كان هذا الميلُ ميلَ المكْحَلة ، أم كان ميل المسافة ، فإن هذه المسافة بين الشمس ورؤوس الخلائق قليلة ، ومع هذا فإن الناس لا يحترقون بحرها ، مع أن الشمس لو تدنو الآن فى الدنيا مقدار أنملة لاحترقت الأرض ومن عليها .

قد يقول قائل : كيف تدنو الشمس من رؤوس الخلائق يوم القيامة بهذه المسافة ، ثم يبقى الناسُ لحظةً واحدةً دون أن يحترقوا ؟! نقول لهذا القائل : عليك أن تكون حسنَ الخلق نحو هذا الحديث .

وحسنُ الخلق نحو هذا الحديث الصحيح يكون بأن نقبله ونصدق به ، وأن لا يكون في صدورنا حرج منه ولا ضيق ولا تردد ، وأن نعلم أن ما أخبر به النبي ﷺ في هذا فهو حقّ ، ولكنَّ هناك فارقًا عظيمًا بين أحوال الناس في الدنيا وأحوالهم في الآخرة ، بحيث لا يمكن أن نقيس أحوالَ

---

(١) سورة يونس ، الآية : ٣٢ .

(٢) أخرجه مسلم رقم (٦٢) كتاب الجنة ونعيمها . والترمذي رقم (٢٤٢١) كتاب الزهد .

الدنيا بأحوالِ الآخرة ، لوجود هذا الفارق العظيم .

فنحن نعلم أن الناس يقفون يوم القيامة خمسين ألف سنة ! ! وعلى مقياس ما في الدنيا ، فهل يمكن أن يقف أحدٌ من الناس خمسين ألف ساعة ؟ بل هل يمكن أن يقف أحد من الناس خمسين ألف دقيقة ؟ **الجواب:** لا يمكن ذلك ، إذن فالفارق عظيم ، فإذا كان كذلك ، فإن المؤمن يقبل مثل هذا الخبر بانشراح صدر وطمأنينة ، ويتسع فهمه له ، وينفتح قلبه لما دلَّ عليه .

ثانيًا : ومن حسن الخلق مع الله عز وجل أن يتلقى الإنسانُ أحكام الله بالقبول والتنفيذ والتطبيق ، فلا يردّ شيئاً من أحكام الله ، فإذا ردَّ شيئاً من أحكام الله فهذا سوء خلق مع الله عز وجل ، سواءٌ ردّها منكراً حكمها ، أو ردّها مستكبرًا عن العمل بها ، أو ردّها متهاونًا بالعمل بها ، فإن ذلك كله منافٍ لحسن الخلق مع الله عز وجل .

* * *

مثال على ذلك : [**الصوم**]

الصوم لاشكّ أنه شاقٌ على النفوس ، لأن الإنسان يترك فيه المألوف ، من طعام ، وشرابٍ ونكاح ، وهذا أمر شاق على الإنسان ، ولكن المؤمن حسن الخلق معَ الله عز وجل ، يقبل هذا التكليفَ ، أو بعبارة أخرى : يقبل هذا التشريف ، فهذه نعمة من الله عز وجل في الحقيقة ، فالمؤمن يقبل هذه النعمة التي في صورة تكليف بانشراح صدر وطمأنينة ، وتتسع لها نفسه ، فتجده يصوم الأيام الطويلة في زمن الحرّ

الشديد ، وهو بذلك راض منشرح الصدر . لأنه يحسن الخُلُق مع ربه . لكن سيِّئ الخلق مع الله يقابل مثل هذه العبادة بالضّجر والكراهية ، ولولا أنه يخشى من أمر لاتُحمد عقباه ، لكان لايلتزم بالصيام .

مثال آخر : [**الصلاة**]

فالصلاة لاشك أنها ثقيلة علي بعض الناس ، وهي ثقيلة على المنافقين ، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام : « **أثقل الصلاة على المنافقين : صلاة العشاء وصلاة الفجر** »[1] .

لكن الصلاة بالنسبة للمؤمن ليست ثقيلة ، قال تعالى : ﴿ **وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ** ﴾[2] . فهي على هؤلاء غير كبيرة وإنما سهلة يسيرة ، ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام : « **وجعلت قُرَّة عيني في الصلاة** »[3] .

فالصلاة هي قرة عين المؤمن ، وزاده اليومي الذي يتزوّد به للقاء الله تعالى ، ولذلك فهو يعظم قدرها ويهتم لها أعظم الاهتمام ، لأنها عماد

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٦٤٤) كتاب الأذان . ومسلم رقم (٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣) كتاب المساجد . والترمذي رقم (٢١٧) في أبواب الصلاة . وأبو داود رقم (٥٤٨) كتاب الصلاة . والنسائي رقم (٨٤٨) كتاب القبلة . وابن ماجة رقم (٧٩١) كتاب المساجد .

(٢) سورة البقرة الآيتان : ٤٥ ، ٤٦ .

(٣) أخرجه النسائي رقم (٣٩٤٩ ، ٣٩٥٠) كتاب عشرة النساء . وأحمد في المسند (١٢٨/٣ ، ١٩٩ ، ٢٨٥) وهو في صحيح الجامع رقم (٣١٣٤) .

الدين وأول ما يحاسَب عليه العبد يوم القيامة .

فحسن الخلق مع الله عز وجل بالنسبة للصلاة أن تؤديها وقلبك منشرح مطمئن ، وعينك قريرة ، تفرح إذا كنت متلبساً بها ، وتنتظرها إذا فات وقتها ، فإذا صليت الظهر ، كنت في شوق إلى صلاة العصر ، وإذا صليت العصر ، كنت في شوق إلي صلاة المغرب ، إذا صليت المغرب ، كنت في شوق إلى صلاة العشاء ، وإذا صليت العشاء كنت في شوق إلى صلاة الفجر . ولهذا كان النبي ﷺ يقول لبلال : « **يا بلال أرحنا بالصلاة** » (١) يقول : أرحنا بها ، فإن فيها الراحة والطمأنينة والسكينة ، لا كما يقول البعض : أرحنا منها ، لأنها ثقيلة عليهم ، وشاقة على نفوسهم .

وهكذا دائمًا تجعل قلبك معلقًا بهذه الصلوات فهذا لاشك أنه من حسن الخلق مع الله تعالى .

* * *

مثال ثالث : [تحريم الربا]

وهذا في المعاملات ، فقد حرَّم الله علينا الربا تحريمًا أكيدًا ، وأحل لنا البيع ، وقال في ذلك : ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ

---

(١) أخرجه أبو داود رقم (٤٩٨٥) كتاب الأدب . وأحمد في المسند (٥/ ٣٦٤) من طريق مسعر بن كدام ، عن عمرو بن مرَّة عن سالم بن الجعد ، عن رجل من أسلم عن النبي ﷺ . والإسناد صحيح وجهالة الصحابيّ لا تضرّ . والحديث في صحيح الجامع للألباني رقم (٧٨٩٢) .

وحرَّم الرِّبَا فمن جاءهُ موْعظةٌ مِّن رَّبِّه فانتهَىٰ فلهُ مَا سَلف وأمْرُهُ إلى اللَّه ومَنْ عَادَ فأُولَٰئك أصْحَابُ النَّار هُمْ فيهَا خَالدُونَ ﴾ (١) . فتوعد من عاد إلى الربا بعد أن جاءته الموعظة وعلم الحكم ، توعده بالخلود في النار والعياذ بالله . بل إنه توعده في الدنيا أيضًا بالحرب فقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ (٢) . هذا يدل على عظم هذه الجريمة وأنها من كبائر الذنوب والموبقات .

فالمؤمن يقبل هذا الحكم بانشراح ورضا وتسليم ، وأما غير المؤمن فإنه لايقبله ، ويضيق صدره به ، وربما يتحيَّل عليه بأنواع الحيل ، لأننا نعلم أن في الربا كسباً متيقناً وليس فيه أي مخاطرة ، لكنه في الحقيقة كسب لشخص وظلم لآخر ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ (٢) .

ثالثاً: ومن حسن الخلق مع الله تعالى: تلقي أقدار الله تعالى بالرضا والصبر.

وكلنا يعلم أن أقدار الله عز وجل التي يجريها على خلقه ليست كلها ملائمة للخلق بمعنى أن منها مايوافق رغبات الخلق ومنها مالا يوافقهم .

فالمرض مثلاً لا يلائم الإنسان ، فكل إنسان يحب أن يكون صحيحًا مُعَافى .

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ٢٧٥ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ٢٧٨ ، ٢٧٩ .

(٣) سورة البقرة ، الآية : ٢٧٩ .

وكذلك الفقر لايلائم الإنسان ، فالإنسان يحبُّ أن يكون غنياً وكذلك الجهل لايلائم الإنسان ، فالإنسان يحب أن يكون عالماً ، لكن أقدار الله عز وجل تتنوع لحكمة يعلمها الله عز وجلَّ ، منها ما يلائم الإنسان ويستريح له بمقتضى طبيعته . ومنها ما لا يكون كذلك . فما هو حسن الخلق مع الله عز وجل نحو أقدار الله ؟

حسن الخلق مع الله نحو أقداره : أن ترضى بما قدّر الله لك ، وأن تطمئن إليه وأن تعلم أنه سبحانه وتعالى ما قدّره إلا لحكمة عظيمة وغاية محمودة يستحق عليها الحمد والشكر .

وعلى هذا فإن حسن الخلق مع الله نحو أقداره هو أن يرضى الإنسان ويستسلم ويطمئن . ولهذا امتدح الله الصابرين فقال : ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ (١) .

* * *

ثانيًا : حسن الخُلق في معاملة الخَلق :

أما حسن الخلق مع المخلوق فعرَّفه بعضُهم بأنه كفُّ الأذى ، وبذلُ الندى ، وطلاقةُ الوجه . ويذكر ذلك عن الحسن البصري رحمه الله (٢) .

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٥٦ .

(٢) انظر الآداب الشرعية (٢/ ٢١٦) . وهناك تعريفات أخرى لحسن الخلق منها : تعريف الواسطي قال : هو أن لا يُخاصم ولا يخاصم من شدة معرفته بالله تعالى . وقيل : هو التخلي من الرذائل ، والتحلي بالفضائل . وقيل : هو بذل الجميل وكفّ القبيح . وسئل سهل عنه فقال : أدناه الاحتمال ، وترك المكافأة ، والرحمة للظالم ، والاستغفار له ، والشفقة عليه . راجع في ذلك : مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ٢٩٤) ، الإحياء لأبي حامد الغزالي (٣/ ٥٣) ، الآداب الشرعية (٢/ ٢١٦) .

أولاً : معنى كفّ الأذى :

معنى كفّ الأذى أن يكف الإنسان أذاه عن غيره سواء كان هذا الأذى بالمال ، أو يتعلق بالنفس ، أو يتعلق بالعرض ، فمن لم يكف أذاه عن الخلق فليس بحسن الخلق ، بل هو سيّيء الخلق .

وقد أعلن الرسول ﷺ حُرْمة أذية المسلم بأى نوع من الإيذاء وذلك في أعظم مجمع اجتمع فيه بأمته حيث قال : « **إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام ، كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا** » [١] .

إذا كان رجل يعتدي على الناس بأخذ المال ، أو يعتدي على الناس بالغشّ، أو يعتدي على الناس بالخيانة ، أو يعتدي على الناس بالضرب والجناية ، أو يعتدي على الناس بالسبِّ والغيبة والنميمة ، لا يكون هذا حسنَ الخلق مع الناس ، لأنه لم يكفّ أذاه ، ويعظم إثم ذلك كلما كان موجهًا إلى من له حقّ عليك أكبر .

فالإساءة إلى الوالدين مثلاً أعظم من الإساءة إلى غيرها ، والإساءة إلى الأقارب أعظم من الإساءة إلى الأباعد ، والإساءة إلى الجيران أعظم من الإساءة إلى من ليسوا جيرانًا لك . ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام : « **والله لا يؤمن ، والله يؤمن ، والله لا يؤمن** » قالوا : من يارسول الله ؟ قال : « **من لايامن جاره بوائقه** » [٢] .

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٦٧) كتاب العلم . ورقم (١٧٤١) كتاب الحج . ورقم (٤٤٠٦) كتاب المغازي . وأخرجه مسلم رقم (٢٩ ، ٣٠) كتاب القسامة .

(٢) أخرجه البخاري رقم (٦٠١٦) كتاب الأدب . واللفظ له . ومسلم بنحوه رقم (٧٣)

ثانيًا : معنى بذلك الندي :

الندى هو الكرم والجود ، يعنى أن تبذل الكرم والجود . والكرم ليس كما يظنه بعض الناس أنه بذل المال فقط ، بل الكرم يكون في بذل النفس، وفي بذل الجاه ، وفي بذل المال ، وفي بذل العلم .

إذا رأينا شخصًا يقضي حوائج الناس ، يساعدهم ، يتوجه في شؤونهم إلى من لا يستطيعون الوصول إليهم ، ينشر علمه بين الناس ، يبذل ماله بين الناس ، هل نَصفُ هذا بحسن الخلق ؟ نعم نصفه بحسن الخلق ، لأنه بذل الندى ، ولهذا قال النبي ﷺ : « **اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحُها ، وخالق الناس بخلق حسن** »[1] .

ومن مخالقة الناس بخلق حسن : أنك إذا ظُلمت أو أسيء إليك ، فإنك تعفو وتصفح ، وقد امتدح الله العافين عن الناس ، فقال في أهل الجنة : ﴿ **الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ **وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ** ﴾[3] .

= كتاب الإيمان ولفظه : « لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه » قال النووي : البوائق : جمع بائقة وهي الغائلة والداهية والفتك . انظر مسلم بشرح النووي (٢/ ٢٠٧) .

(١) أخرجه الترمذي رقم (١٩٨٧) كتاب البر والصلة . وقال : حديث حسن صحيح . وأحمد في المسند (٤/ ١٥٣ ، ١٥٨ ، ٢٣٦) من حديث أبي ذر ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما . وهو في صحيح الجامع الصغير رقم (٩٧) .

(٢) سورة آل عمران ، الآية : ١٣٤ .

(٣) سورة البقرة ، الآية : ٢٣٧ .

وقال تعالى : ﴿ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ ﴾ (٢) .

وكل إنسان يتصل بالناس ، فلا بد أن يجد من الناس شيئاً من الإساءة ، فموقفه من هذه الإساءة أن يعفو ويصفح ، وليعلمْ علم اليقين أنه بعفوه وصفحه ومجازاته بالحسنى ، سوف تنقلب العداوة بينه وبين أخيه إلى ولايه ومحبة وصداقة ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ (٣) .

وتأملوا أيها العارفون باللغة العربية كيف جاءت النتيجة بإذا الفُجائية ، لأن « إذا » الفجائية تدل على الحدوث الفوري في نتيجتها ﴿ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ . ، ولكن ليس كل أحد يوفق لذلك قال : ﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ (٤) .

هل نفهم من هذا أن العفو عن الجاني محمود مطلقاً ومأمور به ؟ قد يفهم البعض من الآية هذا الكلام ، ولكن ليكن معلوماً أن العفو إنما يُحمد إذا كان العفو أحمد ، فإن كان الأخذُ أحمد فالأخذ أفضل . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا

(١) سورة النور ، الآية : ٢٢ .

(٢) سورة الشورى ، الآية : ٤٠ .

(٣) سورة فصلت ، الآية : ٣٤ .

(٤) سورة فصلت ، الآية : ٣٥ .

يُحبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ (١) . فجعل العفو مقرونًا بالإصلاح .

فالعفو قد يمكن أن يكون غير إصلاح ، فقد يكون هذا الذي جنى عليك واجترأ عليك رجلاً شريراً معروفاً بالشر والفساد ، فلو عفوت عنه لتمادى في شره وفساده فالأفضل في هذا المقام أن تأخذ هذا الرجل بجريرته ، لأن في ذلك إصلاحاً . قال شيخ الإسلام ابن تيمية : الإصلاح واجب ، والعفو مندوب ، فإذا كان في العفو فوات الإصلاح فمعنى ذلك أننا قدمنا مندوباً على واجب ، وهذا لا تأتي به الشريعة . وصدق رحمه الله .

---

(١) سورة الشورى ، الآية : ٤٠ .

تنبيه مهم

وإنني بهذه المناسبة أودُّ أن أنبه على مسألة يفعلها كثير من الناس بقصد الإحسان ، وهي أن تقع حادثة من شخص ، فيهلك بسببها شخص آخر ، فيأتي أولياء المقتول فيسقطون الدية عن هذا الجاني الذي فعل الحادث ، فهل إسقاطهم للدية محمود ويعتبر من حسن الخلق ؟ أم في ذلك تفصيل ؟

في ذلك تفصيل ، فلابد أن نتأمل ونفكر في حال هذا الجاني الذي وقع منه الحادث ، هل هو من الناس المعروفين بالتهور وعدم المبالاة ؟ هل هو من الطراز الذي يقول : أنا لا أبالي أن أدهس شخصًا لأن ديته في الدرج والعياذ بالله .

أم أنه رجل حصلت منه هذه الحادثة مع كمال التعقل وكمال الاتزان، ولكن الله تعالى قد جعل لكل شيء مقداراً .

إن كان من هذا الطراز الأخير فالعفو في حقه أولى ، ولكن حتى وإن كان من هذا الطراز المتعقل المتزن ، يجب قبل أن نعفو عنه أن ننظر : هل على الميت دين ؟ فإذا كان علي الميت دين ، فإنه لايمكن أن نعفو ، ولو عَفَوْنَا فإن عفونا لا يعتبر . وهذه مسألة ربما يغفلُ عنها كثير من الناس ، ونحن نقول ذلك لأن الورثة يتلقون الاستحقاق لهذه الدية من الميت الذي أصيب بالحادث ، ولا يردُ استحقاقهم إلا بعد قضاء الدين إن كان الميت مدينًا .

ولهـذا لما ذكـر الله المـيـراث قـال : ﴿ مِـنْ بَعْـدِ وَصِـيَّةٍ يُوصِـي بِـهَا أَوْ دَيْـنٍ﴾(١) .

والحاصل أن من حـسن الخلق : العفـو عن الناس وهـذا من باب بذل الندي، لأن بذل الندي، إمـا إعطاء وإمـا إسـقـاط ، والعـفـو من الإسقاط .

* * *

ثالثًا : طـلاقة الوجـه :

وطلاقة الوجه هو إشراقه حين مقابلة الخلق ، وضدُّ ذلك عبوس الوجه . ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام : « **لاتحقرنّ من المعروف شيئًا ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق** »(٢) . وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه سئل عن البر فقال : **وجه طَلْق ولسان ليّن.**

وقد نظمه بعض الشعراء فقال :

بنيّ إن البرَّ شيءٌ هَـيِّن   وَجْهٌ طليقٌ ولسانٌ لين

فطلاقةُ الوجه تُدخل السرور على الناس وتجذبُ المودة والمحبة وتوجبُ انشراحَ الصّدر منك وممن يقابلك .

لكن إذا كنت عبوسًا ، فإن الناس ينفرون منك ، ولا ينشرحون بالجلوس إليك ، ولا بالتحدث معك ، وربما تصاب بعُقد نفسية ، وربما تصاب بالمرض الخطير وهو مايسمي بالضغط ، فإن انشراح الصّدر

---

(١) سورة النساء ، الآية : ١١ .

(١) أخرجه مسلم رقم (١٤٤) كتاب البر والصلة . والترمذي رقم (١٨٣٣) كتاب الأطعمة مطولاً .

وطلاقة الوجه من أنجع العقاقير المانعة من هذا الداء ولهذا ينصح الأطباء من ابتُلي بهذا الداء بأن يبتعد عما يثيره ويغضبه ، لأن ذلك يزيد في مرضه ، فانشراحُ الصدر وطلاقة الوجه تقضي على هذا المرض ، ويكون بذلك الإنسانُ محبوبًا إلى الخلق كريمًا عليهم .

هذه هي الأصول الثلاثةُ التي يدور عليها حسنُ الخلق في معاملة الخلق .

* * *

ومن علامات حسن الخلق مع الخلق : أن يكون الإنسان حسن المعاشرة مع من يعاشره من أصدقاء وأقارب ، لا يضيق بهم ولا يضيّق عليهم ، بل يدخل السرور على قلوبهم بقدر ما يمكنه في حدود شريعة الله ، وهذا القيد لابد منه ، لأن من الناس من لا يسرُّ إلا بمعصية الله والعياذ بالله ، فهذا لا ينبغي أن نوافقه عليه ، لكن إدخال السرور على من يعاشرك من أهل وأصدقاء وأقارب في حدود الشرع من حسن الخلق . ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام : «**خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي**» (١) .

وكثير من الناس - مع الأسف الشديد - يحسن الخلق مع الناس ، ولكنه لايحسن الخُلُق مع أهله ، وهذا خطأ عظيم وقلبٌ للحقائق ، إذ كيف تحسن الخُلُق مع الأباعد وتسيء الخلق مع الأقارب ؟ قد يقول : لأن

---

(١) أخرجه الترمذي رقم (٣٨٩٥) كتاب المناقب . وابن حبّان في صحيحه رقم (١٣١٢) موارد . من حديث عائشة رضي الله عنها . وهو في صحيح الجامع رقم (٣٣١٤) . وأخرجه ابن ماجه رقم (١٩٧٧) كتاب النكاح ، من حديث ابن عباس رضي الله عنه .

الأقارب أمونُ عليهم [١] . فنقول : هذا ليس بسبب يجعلك تسيء الخلق معهم ، فالأقارب أحقّ الناس بأن تحسن إليهم في الصحبة والعشرة ، ولهذا قال رجل : يا رسول الله! من أحق الناس بحسن صحابتي ؟ قال : « **أمك** » قال : ثم من ؟ قال : « **أمك** » قال : ثم من ؟ قال : « **أمك** » . قال : ثم من ؟ قال : « **أبوك** » [٢] .

والأمر عند بعض الناس على العكس ، تجده يسيء العشرة مع أمه ، ويحسن العشرة مع زوجته ، فيكون مقدماً إحسان العشرة مع زوجته التي هي عنده بمنزلة الأسير ، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام : « **استوصوا بالنساء خيراً فإنهن عوان عندكم** » [٣] . يعني بمنزلة الأسرى والحاصل أن إحسان العشرة مع الأهل والأصحاب والأقارب كل ذلك من مكارم الأخلاق .

---

(١) أمون عليهم : أي أقوم بكفايتهم من النفقة وغيرها .

(٢) أخرجه البخاري رقم (٥٩٧١) كتاب الأدب . ومسلم رقم (١ ، ٢) كتاب البر والصلة . وابن ماجه رقم (٢٧٠٦) كتاب الوصايا .

(٣) أخرجه الترمذي رقم (٣٠٨٧) كتاب التفسير وقال الترمذي : حديث حسن صحيح .

كيفية اكتساب مكارم الأخلاق

ذكرنا أولاً أن حسن الخلق يكون بالطبع ويكون بالتطبع ، وأن حسن الخلق بالطبع أكمل من حسن الخلق بالتطبع ، وذكرنا لذلك دليلاً وهو قول الرسول عليه الصلاة والسلام للأشج بن عبد قيس : « **بل جبلك الله عليهما** » (١) .

وكذلك لأن حسن الخلق بالطبع لا يزول عن الإنسان ، لكن حسن الخلق بالتطبع قد يفوت الإنسان في مواطن كثيرة ، لأنه يحتاج إلى ممارسة وإلى معاناة وإلى رياضة ومجاهدة ، وإلى تذكر ذلك عند حدوث كل ما يثير الإنسان . ولهذا جاء رجل إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فقال : يا رسول الله أوصني : قال : « **لاتغضب** » . فردد مرارا . قال : «**لا تغضب**» (٢) وقال النبي عليه الصلاة والسلام : «**ليس الشديد بالصُّرَعة ، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب** » (٣) .

والصُّرعة : هو الذي يصرع الناس . كهُمزَة ولُمَزة . فهمزة : الذي

---

(١) أخرجه أبو داود رقم (٥٣٣٥) كتاب الأدب . وأحمد في المسند (٤/٢٠٦) . وأخرج مسلم شطره الأول رقم (٢٥ ، ٢٦) كتاب الإيمان . والترمذي رقم (٢٠١١) كتاب البر والصلة .

(٢) أخرجه البخاري رقم (٦١١٦) كتاب الأدب . والترمذي رقم (٢٠٢٠) كتاب البر والصلة .

(٣) أخرجه البخاري رقم (٦١١٤) كتاب الأدب . ومسلم رقم (١٠٧) كتاب البر والصلة .

يهمز الناس . ولمزة : الذي يلمز الناس بالعيون .

فليس الشديد هو الذي يصرع الناس ويغلبهم ، « **إنما الشديد الذي يملك نفسه عن الغضب** » يتحكم فيها ويملكها في مواطن الغضب ، وملك الإنسان نفسه عند الغضب يعتبر من محاسن الأخلاق ، فإذا غضبت فلا تنفذ الغضب ، ولكن استعذ بالله من الشيطان الرجيم ، وإذا كنت قائمًا فاجلس ، وإذا كنت جالسًا فاضطجع ، وإذا ازداد بك الغضب فتوضأ حتى يزول عنك .

ويستطيع الإنسان اكتساب مكارم الأخلاق وذلك عن طريق الممارسة والمجاهدة والتمرين ، فيكون الإنسان حسن الخلق بأمور منها :

أولاً : أن ينظر في كتاب الله وفي سنة رسوله ﷺ ، ينظر النصوص الدالة على مدح ذلك الخلق العظيم الذي يريد أن يتخلق به . والمؤمن إذا رأى النصوص تمدح شيئاً من الأخلاق أو الأفعال ، فإنه سوف يقوم به (١) .

والنبي عليه الصلاة والسلام أشار إلى ذلك في قوله : « **مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير فحامل المسك : إما أن**

---

(١) فالتزكية لاتكون إلا عن طريق الرسل كما قال ابن القيم : « وتزكية النفوس أصعب من علاج الأبدان وأشد ، فمن زكى نفسه بالرياضة والمجاهدة والخلوة التي لم يجيء بها الرسل ، فهو كالمريض الذي يعالج نفسه برأيه . وأين يقع رأيه من معرفة الطبيب؟! فالرسل أطباء القلوب ، فلا سبيل إلى تزكيتها وصلاحها إلا من طريقهم وعلى أيديهم ، وبمحض الانقياد والتسليم لهم والله المستعان . أ. هـ (مدارج السالكين) [٢/ ٣٠٠] .

يبيعك ، وإما أن يُحْذيك [١] ، وإما أن تجد منه رائحة طيبة . ومثل الجليس السوء كنافخ الكير : إما أن يحرق ثيابك ، وإما أن تجد منه رائحة خبيثة » [٢] .

ثانياً : أن يصاحب من عرفوا بحسن الأخلاق والبعد عن مساوىء الأخلاق وسفساف الأعمال ، حتى يجعل من هذه الصحبة مدرسة يستعينُ بها على حسن الخلق ، فإن النبيَّ ﷺ قال : « **الرجُلُ على دينِ خليله ، فلينظر أحدكم من يُخالِل** » [٣] .

ثالثاً : أن يتأمل الإنسان ماذا يترتب على سوء خلقه : فسيّيء الخلق ممقوت ، سيّيء الخلق مهجور ، سيّيء الخلق مذكور بالذكر القبيح ، فإذا علم الإنسان أن سوء الخلق يفضي به إلى هذا فإنه يبتعد عنه .

رابعاً : أن يستحضر الإنسان دائماً صورة خُلُق رسول الله ﷺ وكيف أنه كان يتواضع للخلق ، ويحلم عليهم ، ويعفو عنهم ، ويصبر على

---

(١) يُحْذيك أي يعطيك بدون بيع .

(٢) أخرجه البخاري رقم (٢١٠١) كتاب البيوع . ورقم (٥٥٣٤) كتاب الذبائح . وأخرجه مسلم رقم (١٤٦) كتاب البر والصلة . قال النووي : وفيه فضيلة مجالسة الصالحين وأهل الخير ، والمروءة ومكارم الأخلاق ، والورع والعلم والأدب ، والنهي عن مجالسة أهل الشر وأهل البدع ومن يغتاب الناس ، أو يكثر فجره ، وبطالته ونحو ذلك من الأنواع المذمومة . أ. هـ انظر مسلم بشرح النووي (١٦/ ٣٩٤) .

(٣) أخرجه الترمذي رقم (٢٣٧٨) كتاب الزهد وقال : هذا حديث حسن صحيح . وأبو داود رقم (٤٨٣٣) كتاب الأدب . وأحمد في المسند (٢/ ٣٠٣ ، ٣٣٤) وحسنه الألباني وهو في صحيح الجامع الصغير رقم (٣٥٤٥) وسلسلة الأحاديث الصحيحة رقم (٩٢٧) .

أذاهم ، فإذا استحضر الإنسان أخلاق النبي ﷺ ، وأنه خير البشر وأفضل من عبد الله تعالى ، هانت على الإنسان نفسه ، وانكسرت صولة الكبر فيها ، فكان ذلك داعيًا إلى حسن الخلق .

صور من مكارم الأخلاق

ومن مكارم الأخلاق : أن تصل من قطعك : من الأقارب ممن تجب صلتهم عليك ، إذا قطعوك ؛ فصلهم ولا تقل : من وصلني وصلته ! فإن هذا ليس بصلة ؛ كما قال النبي عليه الصلاة والسلام : « **ليس الواصل بالمكافئ، إنما الواصل من إذا قُطعت رحمه؛ وصلها** » (١)؛ فالواصل هو الذي إذا قطعت رحمه وصلها .

وسأل النبي ﷺ رجلٌ ، فقال : يا رسول الله ! إن لي أقارب ؛ أصلهم ويقطعونني ، وأحسن إليهم ويسيئون إلي ، وأحلم عنهم ويجهلون علي ! فقال النبي ﷺ : « **إن كنت كما قلت ؛ فكأنما تسفهم الملَّ ، ولا يزال معك من الله ظهيرٌ عليهم ما دُمْتَ على ذلك** » (٢) .

وقوله : « **تسفهم المل** » ؛ أي كأنما تضع التراب أو الرماد الحار في أفواههم .

وإذا كان وصل من قطعك يعدُّ من مكارم الأخلاق فكذلك وصل من وصلك هو أيضًا من هذا الباب ؛ لأن من وصلك وهو قريب ؛ صار له حقان : حق القرابة ، وحق المكافأة ؛ لقول النبي عليه الصلاة والسلام :

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٥٩٩١) كتاب الأدب .

(٢) أخرجه مسلم رقم (٢٢) كتاب البر والصلة .

« **من صنع إليكم معروفًا ؛ فكافئوه** »[١] .

وكذلك عليك أن تعطي من حرمك : أي من منعك ، ولا تقل : منعني ؛ فلا أعطيه .

وتعفو عمن ظلمك ؛ أي : من انتقصك حقك : إما بالعدوان ، وإما بعدم القيام بالواجب .

والظلم يدور على أمرين : اعتداء وجحود : إما أن يعتدى عليك بالضرب وأخذ المال وهتك العرض ، إما أن يجحدك فيمنعك حقك .

وكمال الإنسان أن يعفو عمن ظلمه . ولكن العفو إنما يكون عند القدرة على الانتقام ، فأنت تعفو مع قدرتك على الانتقام لأمور :

أولاً : رجاء لمغفرة الله عز وجل ورحمته ؛ فإن من عفا وأصلح ؛ فأجره على الله .

ثانياً : لإصلاح الود بينك وبين صاحبك ؛ لأنك إذا قابلت إساءته بإساءة ؛ استمرت الإساءة بينكما ، وإذا قابلت إساءته بإحسان ؛ عاد إلى الإحسان إليك وخجل ..

قال الله تعالى : ﴿ **وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ** ﴾[٢] .

فالعفو عند المقدرة من مكارم الأخلاق ، لكن بشرط أن يكون العفو

---

(١) أخرجه أبو داود رقم (١٦٧٢) كتاب الزكاة . ورقم (٥١٠٩) كتاب الأدب . والنسائي رقم (٢٥٦٦) كتاب الزكاة باب (٧٢) وهو في صحيح الجامع رقم (٦٠٢١) .

(٢) سورة فصلت ، الآية : ٣٤ .

إصلاحاً ؛ فإن تضمن العفو إساءة ؛ فإنه لا يندب إلى ذلك ؛ لأن ا
اشترط ، فقال : ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ ﴾[١] ؛ أي : كان في عفوه إصلا
أما من كان في عفوه إساءة أو كان سبباً للإساءة ؛ فهنا نقول : لا تعف
مثل أن يعفو عن مجرم ، ويكون عفوه هذا سبباً لاستمرار هذا المجرم
إجرامه ؛ فترك العفو هنا أفضل وربما يجب ترك العفو حينئذ .

* * *

ومن مكارم الأخلاق أيضاً : بر الوالدين ، وذلك لعظم حقه
. فلم يجعل الله لأحد حقاً يلي حقه وحق رسوله ﷺ إلا للوالدين
فقال : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾[٢] .

وحق الرسول في ضمن الأمر بعبادة الله ؛ لأنه لا تتحق العبادة ح
يقوم العبد بحق الرسول عليه الصلاة والسلام ؛ بمحبته واتباع سبيله
ولهذا كان داخلاً في قوله : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ . وكي
يعبد الله إلا من طريق الرسول ﷺ ؟!

وإذا عبد الله على مقتضى شريعة الرسول ﷺ ؛ فقد أدى حقه .

ثم يلي ذلك حق الوالدين ؛ فالوالدان تعبا على الولد ، ولا سي
الأم ، قال الله تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُر
وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ﴾[٣] ، وفي آية أخرى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أ

---

(١) سورة الشورى ، الآية : ٤٠ .
(٢) سورة النساء ، الآية : ٣٦ .
(٣) سورة الأحقاف ، الآية : ١٥ .

وهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ [(١)] ، فالأمُّ تتعب في الحمل، وعند الوضع ، وبعد الوضع ، وترحم صبيها أشد من رحمة الوالد له ، ولهذا كانت أحق الناس بحسن الصحبة والبر ، حتى من الأب .

قال رجل : يارسول الله! من أحق الناس بحسن صحابتي ؟ قال : « **أمك** ». قال : ثم من ؟ قال: « **أمك** ». قال: ثم من؟ قال: « **أمك** » . ثم قال في الرابعة : « **ثم أبوك** » [(٢)] .

والأب أيضًا يتعب على أولاده ، ويضجر بضجرهم ، ويفرح لفرحهم ويسعى بكل الأسباب التي فيها راحتهم وطمأنينتهم وحسن عيشهم ، يضرب الفيافي والقفار من أجل تحصيل العيش له ولأولاده .

فكل من الأم والأب له حق ؛ ومهما عملت من العمل فلن تقضي حقهما ، ولهذا قال الله عز وجل : ﴿ **وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا** ﴾[(٣)] ؛ فحقهم سابق ؛ حيث ربياك صغيراً حين كنت لا تملك لنفسك نفعاً ولا ضراً ؛ فواجبها البر .

* والبر فرض عين بالإجماع على كل واحد من الناس ، ولهذا قدمه النبي ﷺ على الجهاد سبيل الله ؛ كما في حديث ابن مسعود ؛ قال : قلت : يا رسول الله ! أي العمل أحب إلى الله؟ قال: « **الصلاة على وقتها** » . وقلت : ثم أي ؟ قال : « **بر الوالدين** » . قلت : ثم أي ؟

---

(١) سورة لقمان ، الآية : ١٤ .

(٢) أخرجه البخاري رقم (٥٩٧١) كتاب الأدب . ومسلم رقم (١ ، ٢) كتاب البر والصلة .

(٣) سورة الإسراء ، الآية : ٢٤ .

قال : « **الجهاد في سبيل الله** »[١].

* والوالدان هما الأب والأم ، أما الجد والجدة ؛ فلهما بر ، لكنه لا يساوي بر الأم والأب ؛ لأن الجد والجدة لم يحصل لهما ما حصل للأم والأب من التعب والرعاية والملاحظة ؛ فكان برهما واجباً من باب الصلة ، أما البر ؛ فإنه للأم والأب .

* **لكن ؛ ما معنى البر ؟**

البر : إيصال الخير بقدر ما تستطيع ، وكف الشر .

إيصال الخير بالمال ، وإيصال الخير بالخدمة ، وإيصال الخير بإدخال السرور عليهما ؛ من طلاقة الوجه ، وحسن المقال والفعال ، وبكل مافيه راحتهما .

* ولهذا كان القول الراجح وجوب خدمة الأب والأم على الأولاد إذا لم يحصل عليه ضرر ، فإن كان عليه ضرر ؛ لم يجب عليه خدمتهما ، اللهم إلا عند الضرورة .

ولهذا نقول : إن طاعتهما واجبة فيما فيه نفع لهما ولا ضرر على الولد فيه ، إما ما فيه ضرر عليه ، سواء كان ضرراً دينياً ؛ كان يأمراه بترك واجب أو فعل محرم ؛ فإنه لا طاعة لهما في ذلك ، أو كان ضرراً بدنياً ؛ فلا يجب عليه طاعتهما . أما المال ؛ فيجب عليه أن يبرهما ببذله ، ولو كثر ، إذا لم يكن عليه ضرر ، ولم تتعلق به حاجته ، والأب خاصة له أن

(١) أخرجه البخاري رقم (٥٢٧) كتاب مواقيت الصلاة . ومسلم رقم (١٣٩) كتاب الإيمان .

يأخذ من مال ولده ما شاء ، ما لم يضر .

* وإذا تأملنا في أحوال الناس اليوم ؛ وجدنا كثيراً منهم لا يبر بوالديه ، بل هو عاق ؛ تجده يحسن إلى أصحابه ، ولا يمل الجلوس معهم ، لكن لو يجلس إلى أبيه أو أمه ساعة من نهار ؛ لوجدته متململاً ، كأنما هو على الجمر ؛ فهذا ليس ببارّ ، بل البارُّ من ينشرح صدره لأمه وأبيه ويخدمهما على أهداب عينيه ، ويحرص غاية الحرص على رضاهما بكل مايستطيع .

وكما قالت العامة : « البر أسْلاف » ؛ فإن البر مع كونه يحصل به البارُّ على ثواب عظيم في الآخرة ؛ فإنه يجازى به في الدنيا . فالبر والعقوق كما يقول العوام : « أسلاف » ، أقرض ؛ تستوف ، إن قدمت البر لأبيك وأمك ؛ برك أولادك ، وإن قدمت العقوق ؛ عقك أولادك .

وهناك حكايات كثيرة في أن من الناس من بر والديه فبر به أولاده ، وكذلك في العقوق هناك حكايات تدل على أن الإنسان إذا عقَّ أباه وأمه عقه أولاده .

* * *

ومن مكارم الأخلاق أيضاً : صلة الأرحام .

وهناك فرق بين الوالدين والأقارب الآخرين ، فالأقارب لهم الصلة ، والوالدان لهما البر . والبر أعلى من الصلة ؛ لأن البر كثرة الخير والإحسان ، لكن الصلة ألا يقطع ، ولهذا يقال في تارك البر : إنه عاق ، ويقال فيمن لم يصل : إنه قاطع !

فصلة الأرحام واجبة ، وقطعها سبب للعنة والحرمان من دخول الجنة. قال الله تعالى: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴾ (١).

وقال النبي عليه الصلاة والسلام : « **لا يدخل الجنة قاطع** » (٢) ؛ أي : قاطع رحم .

والصلة جاءت في القرآن والسنة مطلقة .

وَكُلُّ مَا أَتَى وَلَمْ يُحَدَّدِ ... بِالشَّرْعِ كَالحِرْزِ فَبِالعُرْفِ احْدُدِ

وعلى هذا ؛ يرجع إلي العرف فيها ؛ فما سماه الناس صلة ؛ فهو صلة ، وما سموه قطيعة ؛ فهو قطيعة ، وهذا يختلف باختلاف الأحوال والأزمان والأمكنة والأمم .

ـ إذا كان الناس في حالة فقر ، وأنت غني ، وأقاربك فقراء ؛ فصلتهم أن تعطيهم بقدر حالك .

ـ وإذا كان الناس أغنياء ، وكلهم في خير ؛ فيمكن أن يكون الذهاب إليهم في الصباح أو المساء مما يعد صلة .

* وفي زماننا هذا الصلة بين الناس قليلة ، وذلك لانشغال الناس في حوائجهم ، وانشغال بعضهم عن بعض ، والصلة التامة أن تبحث عن

---

(١) سورة محمد ، الآية ٢٢ ، ٢٣ .

(٢) أخرجه البخاري رقم (٥٩٨٤) كتاب الأدب . ومسلم رقم (١٩) كتاب البر والصلة .

حالهم ، وكيف أولادهم ، وترى مشاكلهم ، ولكن هذه الأمور مع الأسف مفقودة ؛ كما أن البر التام مفقود عند كثير من الناس .

* * *

ومن مكارم الأخلاق أيضاً : حسن الجوار مع الجيران، والجيران هم الأقارب في المنزل ، وأدناهم أولاهم بالإحسان والإكرام :

قال تعالى : ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ ﴾ (١)، فأوصى الله بالإحسان إلى الجار القريب والجار البعيد .

وقال النبي ﷺ : « **من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ؛ فليكرم جاره** » (٢) .

وقال ﷺ : « **إذا طبخت مرقة ؛ فأكثر ماءها ، وتعاهد جيرانك** » (٣) .

وقال ﷺ : « **ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه** » (٤).

وقال ﷺ : « **والله لا يؤمن والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ؛ قيل : من**

---

(١) سورة النساء ، الآية : ٣٦ .

(٢) أخرجه البخاري رقم (٦٠١٩) كتاب الأدب . ومسلم رقم (٧٧) كتاب الإيمان . ورقم (١٤) كتاب اللقطة .

(٣) أخرجه مسلم رقم (١٤٢) كتاب البر والصلة .

(٤) أخرجه البخاري رقم (٦٠١٤ ، ٦٠١٥) كتاب الأدب . ومسلم رقم (١٤٠ ، ١٤١) كتاب البر والصلة .

يا رسول الله؟ قال : الذي لا يأمن جاره بوائقه»[1] ، أي شرورة وغوائله .

إلى غير ذلك من النصوص الدالة على العناية بالجار والإحسان إليه وإكرامه .

* والجار إن كان مسلماً قريباً ؛ كان له ثلاثة حقوق : حق الإسلام ، وحق القرابة ، وحق الجوار .

وإن كان قريباً جاراً ؛ فله حقان : حق القرابة ، وحق الجوار .

وإن كان مسلماً غير قريب وهو جار ؛ فله حقان : حق الإسلام ، وحق الجوار .

وإن كان جاراً كافراً ؛ فله حق واحد ، وهو حق الجوار .

* **فمن مكارم الأخلاق حسن الجوار مطلقاً** ، أيّاً كان الجار ، ومن كان أقرب ؛ فهو أولى .

* ومن المؤسف أن بعض الناس اليوم يسيئون إلى الجار أكثر مما يسيئون إلى غيره ؛ فتجده يعتدي على جاره بالأخذ من ملكه وإزعاجه .

وقد ذكر الفقهاء رحمهم الله في آخر باب الصلح في الفقه شيئاً من أحكام الجوار ؛ فليرجع إليه .

* * *

ومن مكارم الأخلاق أيضاً : الإحسان إلى اليتامى والمساكين وابن السبيل .

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٦٠١٦) كتاب الأدب .

* **واليتامى** : جمع يتيم ، وهو الذي مات أبوه قبل بلوغه .

وقد أمر الله تعالى بالإحسان إلى اليتامى ، وكذلك النبي ﷺ حث عليه في عدة أحاديث [١] .

ووجه ذلك أن اليتيم قد انكسر قلبه بفقد أبيه ؛ فهو في حاجة إلى العناية والرفق .

والإحسان إلى اليتامى يكون بحسب الحال .

* **والمساكين** : هم الفقراء ، وهو هنا شامل للمسكين والفقير .

فالإحسان إليهم مما أمر به الشرع في آيات متعددة من القرآن ، وجعل لهم حقوقاً خاصة في الفيء وغيره .

ووجه الإحسان إليهم أن الفقر أسكنهم وأضعفهم وكسر قلوبهم ، فكان من محاسن الإسلام ومكارم الأخلاق أن نحسن إليهم جبراً لما حصل لهم من النقص والانكسار .

والإحسان إلى المساكين يكون بحسب الحال : فإذا كان محتاجاً إلي طعام ؛ فالإحسان إليه بأن تطعمه ، وإذا كان محتاجاً إلى كسوة ؛ فالإحسان إليه بأن تكسوه ، ويكون أيضًا بأن توليه اعتباراً ، فإذا دخل المجلس ؛ ترحب به ، وتقدمه لأجل أن ترفع من معنويته .

فمن أجل هذا النقص الذي قدره الله عز وجل عليه بحكمته أمرنا عز

---

(١) منها قوله ﷺ : « أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا » وقال بأصبعيه السبابة والوسطى . أخرجه البخاري رقم (٦٠٠٥) كتاب الزدب من حديث سهل بن سعد . وأخرجه مسلم بنحوه رقم (٤٢) كتاب الزهد من حديث أبي هريرة .

وجل أن نحسن إليهم .

* **كذلك ابن السبيل ، وهو المسافر** ، وهو هنا المسافر الذي انقطع به السفر ، أو لم ينقطع ؛ بخلاف الزكاة ؛ لأن المسافر غريب ، والغريب مستوحش ، فإذا آنسته بإكرامه والإحسان إليه ؛ فإن هذا مما يأمر به الشرع .

فإذا نزل ابن سبيل بك ضيفاً ؛ فمن مكارم الأخلاق أن تكرم ضيافته .

لكن قال بعض العلماء : إنه لا يجب إكرامه بضيافته إلا في القرى دون الأمصار ! ونحن نقول : بل هي واجبة في القرى والأمصار ؛ إلا أن يكون هناك سبب ؛ كضيق البيت مثلاً ، أو أسباب أخرى تمنع أن تضيف هذا الرجل ، لكن على كل حال ينبغي إذا تعذر أن تحسن الرد .

* * *

*** ومن مكارم الأخلاق أيضًا : « الرفق بالمملوك والخادم »**

* والمملوك يشمل المملوك الآدمي والبهيم :

ـ فالرفق بالمملوك الآدمي يكون بأن تطعمه إذا طعمت ، وتكسوه إذا اكتسيت ، ولا تكلفه مالا يطيق .

ـ والرفق بالمملوك من البهائم سواء كانت مما تركب أو تحلب أو تقتنى ؛ يختلف بحسب ما تحتاج إليه ؛ ففي الشتاء تجعل في الأماكن الدافئة إذا كانت لا تتحمل البرد ، وفى الصيف في الأماكن الباردة إذا كانت لا تتحمل الحر ، ويؤتى لها بالطعام وبالشراب إن لم تحصل عليه بنفسها بالرعي ، وإذا كانت مما تحمل ؛ فلا تحمل مالا تطيق .

وهذا يدل على كمال الشرع ، وأنه لم ينس حتى البهائم ، بل جعل لها حقّاً .

* * *

ومن مكارم الأخلاق أيضاً : ترك الفخر والخيلاء والبغي والاستطالة على الخلق بحق أو بغير حق .

* فالفخر بالقول والخيلاء بالفعل ، والبغي العدوان والاستطالة : الترفع والاستعلاء .

فالإنسان منهيٌّ أن يتفاخر على غيره بقوله ، فيقول : أنا العالم ! أنا الغني ! أنا الشجاع !

وإن زاد على ذلك أن يستطيل على الآخرين ويقول : ماذا أنتم عندي؟ فيكون هذا فيه بغي واستطالة على الخلق .

والخيلاء تكون بالأفعال ؛ يتخايل في مشيته وفي وجهه وفي رفع رأسه ورقبته إذا مشى ، كأنه وصل إلى السماء ، والله عز وجل وبخ من هذا فعله ، فقال : ﴿ **وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً** ﴾ (١) .

فالواجب أن تكون متواضعًا في القول وفي الفعل ، لا تثن على نفسك بصفاتك الحميدة ؛ إلا حيث دعت الضرورة أو الحاجة إلى ذلك ؛ كقول ابن مسعود رضي الله عنه : « لو أعلم أحدًا هو أعلم مني بكتاب

---

(١) سورة الإسراء ، الآية : ٣٧ .

الله تبغله الإبل ؛ لركبت إليه »[١] ؛ فإنه رضي الله عنه قصد بذلك أمرين :

الأول : حث الناس على تعلم كتاب الله تعالى .

والثاني : دعوتهم للتلقي عنه .

والإنسان ذو الصفات الحميدة لا يظن أن الناس تخفى عليهم خصاله أبدًا ، سواء ذكرها للناس أم لم يذكرها ، بل إن الرجل إذا صار يعدد صفاته الحميدة أمام الناس ؛ سقط من أعينهم ؛ فاحذر هذا الأمر .

* **والبغي** : العدوان على الغير ، ومواقعه ثلاثة بينها الرسول ﷺ في قوله : « **إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام** »[٢] .

فالبغي على الخلق يكون في الأموال والدماء والأعراض .

* **ففي الأموال** ؛ مثل أن يدعي ما ليس له ، أو ينكر ما كان عليه ، أو يأخذ ما ليس له ؛ فهذا بغي في الأموال .

* **وفي الدماء** : القتل فما دونه ؛ كأن يعتدي على الإنسان بالجرح والقتل.

* **وفي الأعراض** : يحتمل أن يراد بالأعراض : السمعة ، فيعتدي

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٥٠٠٢) كتاب فضائل القرآن . ومسلم رقم (١١٥) كتاب فضائل الصحابة .

(٢) أخرجه البخاري رقم (١٧٣٩) كتاب الحج من حديث ابن عباس . والبخاري رقم (١٧٤١) كتاب الحج . ومسلم رقم (٢٩ ، ٣١) كتاب الحج من حديث أبي بكرة . ومسلم رقم (١٤٧) كتاب الحج من حديث جابر .

عليه بالغيبة التي يشوه بها سمعته ، ويحتمل أن يراد بها الزنى وما دونه ، والكل محرم ؛ فمن مكارم الأخلاق ترك الاعتداء على الأموال والدماء والأعراض .

* وكذلك الاستطالة على الخلق ؛ يعني : الاستعلاء عليهم بحق أو بغير حق .

فالاستعلاء على الخلق منهيٌ عنه ، سواء كان بحق أو بغير حق ، والاستعلاء هو أن يترفع الإنسان على غيره .

وحقيقة الأمر أن من شكر نعمة الله عليك أنه إذا منَّ عليك بفضل على غيرك من مال أو جاه أو سيادة أو علم أو غير ذلك ؛ فإنه ينبغي أن تزداد تواضعًا ، حتى تضيف إلى الحسن حسنى ؛ لأن الذي يتواضع في موضع الرفعة هو المتواضع حقيقة . وقد قال النبي ﷺ : « **... وما تواضع أحدٌ لله إلا رفعه الله** » (١) .

وقال النبي ﷺ : « **إن الله أوحى إليَّ أن تواضعوا ، حتى لا يفخر أحدٌ على أحدٍ ، ولا يبغي أحدٌ على أحدٍ** » (٢) .

---

(١) أخرجه مسلم رقم (٦٩) كتاب البر والصلة .

وقال النووي في شرح صحيح مسلم (١٦/ ٣٥٨) : قوله ﷺ : « وما تواضع أحدٌ لله إلا رفعه الله » : فيه وجهان : أحدهما : يرفعه في الدنيا ، ويثبت له بتواضعه في القلوب منزلة ، ويرفعه الله عند الناس . والثاني : أن المراد ثوابه في الآخرة ، ورفعه فيها بتواضعه في الدنيا . . . وقد يكون المراد الوجهين معًا في جميعها في الدنيا والآخرة . والله أعلم .

(٢) أخرجه مسلم رقم (٦٤) كتاب الجنة ونعيمها .

أخلاق غير المسلمين

يورد كثير من الناس أن أهل الغرب أحسن أخلاقًا منَّا في تعاملهم وبيعهم وشرائهم ، بينما تجد الغش والكذب وإنفاق السلعة بالحلف الكاذب منتشرًا بين صفوفنا نحن المسلمين .

وللرد على هذه الفرية نقول : قال النبي عليه الصلاة والسلام : « **البينة على المدعي** » (١) . وما كان مشهورًا بين الناس من أن الغرب عندهم حسن خلق في المعاملة فهذا ليس بصحيح ، فإن عندهم من سوء المعاملة ما يعرفه من ذهب إليهم ونظر إليهم بعين العدل والإنصاف ، دون من نظر إليهم بعين الإجلال والإكبار . فقد قال الشاعر :

وعَيْنُ الرضا عن كلِّ عيبٍ كليلةٌ

كما أن عين السُّخْطِ تبدي المساويا

ولقد حدثني كثير من الشباب الثقات الذي ذهبوا إلى الغرب عن أفعال من أسوأ الأخلاق ، لكنهم هم إذا نصحُوا فيما ينصحون فيه من البيع والشراء ، فليس لأنهم ذَوو أخلاق ، وإنما لأنهم عُبّادُ مادة ، والإنسان كلما كان أنصح في معاملة من هذه المعاملات الدنيوية ، كان

(١) أخرجه الترمذي رقم (١٣٤١) كتاب الأحكام . وقال : هذا حديث في إسناده مقال . وصححه الألباني وهو في صحيح الجامع رقم (٢٨٩٧) . وقال الترمذي أيضًا : والعمل على هذا عند أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ ، وغيرهم أن البينة على المدعى ، واليمين على المدَّعى عليه . أهـ . سنن الترمذي (٣/ ٦٧٨) .

الناس إليه أقبل ، وإلى شراء سلعته وترويجها أسرع .

فهم لا يفعلون ذلك لأنهم كاملو الأخلاق ، لكن لأنهم أصحاب مادة ، ويرون من أكبر الدعايات لتنمية أموالهم أن يحسنوا المعاملة ، من أجل أن يجذبوا إليهم الأعداد الكبيرة . وإلا فهم كما وصفهم الله عز وجل بقوله : ﴿ **إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية** ﴾ (١) . ولا أظنُّ أحدًا أصدق وصفًا من وصف الله عز وجل للكافرين ، فإنهم شرُّ البرية ، وكيف يرجى خيرٌ مقصود لذاته من قوم وصفهم الله بأنهم شرُّ البرية ، لا أعتقد أن ذلك يكون أبدًا ، لكن ما يوجد فيهم من الصدق والبيان والنصح في بعض المعاملات ، إنما هو مقصود لغيره عندهم ، وهو الحصول على المادة والكسب ، وإلا فمن رأى ظلمهم وغُشمهم واستطالتهم على الخلق في مواطن كثيرة ، عرف مصداق قوله تعالى : ﴿ **أولئك هم شر البرية** ﴾ .

وأما بالنسبة لما وقع من كثير من المسلمين ، من الغش والكذب والخيانة في المعاملات ، فإنه هؤلاء المسلمين نقصوا من إسلامهم وإيمانهم بقدر ما خالفوا الشريعة فيه من هذه المعاملات .

فلا يعني أن مخالفة بعض المسلمين وخروجهم عن إطار الشريعة في مثل هذه الأمور ، لا يعني ذلك النقص في الشريعة نفسها ، فالشريعة كاملة ، وهؤلاء الذين أساؤوا إلى شريعة الإسلام ، ثم إلى إخوانهم من المسلمين ، ثم إلى من يعاملونه من غير المسلمين ، هؤلاء إنما أساؤوا إلى

---

(١) سورة البينة ، الآية : ٦ .

أنفسهم فقط ، والعاقل لا يجعل إساءةَ العامل سوءًا في الشريعة التي ينتمي إليها هذا العامل .

ولذلك فإنني أرجو من جميع المسلمين أن تكون لديهم حملة قوية في محاربة هذه الأمور التي لا يقرها الإسلام ، من الكذب والخيانة والغش والخداع وما أشبه ذلك .

فلابد أن نبين للناس أن من كمال الدين كمال الخلق كما صحّ عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال : « **أكملُ المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا** » (١) .

وعلى هذا فكلٌّ من كان ناقص الخلق فهو ناقص الدين ، فكمال الدين بكمال الخلق (٢) ، ولذلك فإن تأثير كامل الخلق على غيره من جَلْبه إلى الإسلامَ وإلى الدين ، أكبر من تأثير ذي الديانة السيّئ الخلق ، فإذا وفق من كان قويّاً في العبادة إلى كمال الخلق كان ذلك أحسن وأكمل .

---

(١) أخرجه أبو داود رقم (٤٦٨٢) كتاب السنة . والترمذي رقم (١١٦٢) كتاب الرضاع . وفيه زيادة : « وخياركم خياركم لنسائهم » وقال الترمذي : حديث حسن صحيح وهما في صحيح الجامع رقم (١٢٣٠ ، ١٢٣٢) .

(١) قال ابن القيم رحمه الله في « مدارج السالكين » : الدينُ كلُّه خُلُق ، فما زاد عليك في الخُلُق زاد عليك في الدين . أ. هـ. من المدراج (٢/ ٢٩٤) .

كمال خلق النبي ﷺ

من أحسن الخَلْق أخلاقاً ؟ الرسول عليه الصلاة والسلام ، وقد قال الله تعالى فيه : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ ﴾ (١) .

وفي الصحيح أن هشام بن حكيم سأل أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله ﷺ فقالت : « **كان خُلُقه القرآن . فقال : لقد هممت أن أقوم ولا أسأل شيئاً** » (٢) !! فهو ﷺ أكمل الناس خلقًا في جميع محاسن الأخلاق وجميل الخصال والأفعال . والحوادث والوقائع التي وقعت في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام ، تدل على حسن خلقه . بل إنه ﷺ ، كان حسن الخلق حتى مع الأطفال : فكان يلاطفهم ويلاعبهم ، وكان يقول لأحد الأطفال : « **يا أبا عُمَيْر ما فعل النُّغيْر** »(٣) وأبو عمير كنية لطفل صغير وكان معه « نغير » وهو طائر صغير مثل العصفور ، هلك هذا النغير ، فحزن عليه الصبي واغتم ، فكان عليه الصلاة والسلام ، يلاطفه قائلاً : « **يا أبا عُمير ما فعل النغير** » .

وكذلك من حسن خلقه ﷺ ، ورحمته بالخلق أن أعرابياً جاء وبال في المسجد ، فزجره الناس ونهروه بشدة ، فنهاهم النبي عليه الصلاة

---

(١) سورة القلم ، الآية : ٤ .

(٢) أخرجه مسلم رقم (٤٧٦) كتاب صلاة المسافرين . وأبو داود رقم (١٣٤٢) كتاب الصلاة . وابن ماجه مختصراً رقم (٢٣٣٣) كتاب الأحكام . وأحمد في المسند (٦/ ٥٤ ، ٩١ ، ١١١ ، ١٦٣ ، ١٨٨ ، ٢١٦) .

(٣) أخرجه البخاري رقم (٦٢٠٣) كتاب الأدب . ومسلم رقم (٣٠) كتاب الآداب .

والسلام ، فلما قضى بوله أمر النبي ﷺ ، بذَنوب من ماء فأريق على البول . ثم دعا الأعرابي فقال له : « **إن هذه المساجد لا يصلح فيها شيء من الأذى أو القذر ، إنما هي للصلاة وقراءة القرآن** »[١] . أو كما قال النبي عليه الصلاة والسلام .

ووجه حسن الخلق في هذه القصة ظاهر ، فهو لم يوبخ هذا الأعرابي ولم يأمر بضربه ، بل إنه تركه حتى قضى بوله ، ثم أعلمه أن المساجد لاتصلح لما فعل إنما هي للصلاة والذكر وقراءة القرآن .

وكذلك من حسن خلقه ﷺ ، ورحمته بالمؤمنين ، أن رجلاً أتى إليه ﷺ ، وقال : يا رسول الله هلكتُ ! ! فقال له النبي ﷺ : « **وما أهلكك؟** » فقال الرجل : وقعت على امرأتي في رمضان ـ يعني جامعها في نهار رمضان ـ فقال له النبي ﷺ : « **فهل تجدُ ما تعتقُ رقبةً ؟** » قال : لا . قال : « **فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين؟** » قال : لا . قال : « **فهل تجد ما تطعم ستين مسكيناً ؟** » قال : لا . ثم جلس . فأتي النبي ﷺ بعَرَق [٢] فيه تمر . فأعطاه إياه وقال له : « **تصدّق بهذا** » فقال الرجل : على أفقر منا ؟! فما بين لا بَتَيْها أحوج إليه منا . فضحك النبي ﷺ حتى بدت أنيابه ثم قال : « **اذهب فاطعمه أهلك** »[٣] .

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٢١٩ ، ٢٢٠) كتاب الوضوء . ورقم (٦١٢٨) كتاب الأدب . ومسلم رقم (٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠) كتاب الطهارة .

(٢) العَرَق : هو الزنبيل والقفة والمكتل ، وهو عند الفقهاء ما يسع خمسة عشر صاعًا ، وهي ستون مُدًا لستين مسكينًا ، لكل مسكينٍ مدّ . انظر مسلم بشرح النووي (٧/ ٢٢٦) .

(٣) أخرجه البخاري رقم (١٩٣٦) كتاب الصوم ورقم (٢٦٠٠) كتاب الهبة ، ورقم =

وحسن خلق النبي ﷺ في هذه القصة ظاهر بيّن ، فإنه لم ينهر هذا الرجل ، ولم يشتمه ولم يوبّخه ، لأنه جاء نادمًا تائبًا خائفًا ، فرأى النبي ﷺ ، بعلمه وحكمته أن هذا الرجل لا يستحق أن يوبّخ ، بل يبين له الحق الذي جاء من عند الله ، ويعامل بالرفق واللين ، وهذا من رحمته ﷺ ، التي مدحه الله تعالى بها في كتابه حيث قال : ﴿ **فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم** ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ **لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم** ﴾ (٢) .

وأما صفاته ﷺ فهو المقدَّم في كل صفة حميدة عُرفت شرعًا أو طبعًا .

* * *

ففي الكرم : كان ﷺ أكرم الناس ، يعطي عطاءً لا يعطيه أحد من البشر ، جاءه رجل فأعطاه غنمًا بين جبلين ، فرجع إلى قومه فقال : ياقوم ! أسلموا فإن محمدًا يعطي عطاءً لا يخشى الفاقة (٣) .

وقال جابر بن عبدالله رضي الله عنهما : « **ما سئل رسول الله ﷺ**

= (٥٣٦٨) كتاب النفقات . ورقم (٦٠٨٧) كتاب الأدب . وأخرجه مسلم رقم (٨١١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧) كتاب الصيام .

(١) سورة آل عمران ، الآية : ١٥٩ .

(٢) سورة التوبة ، الآية : ١٢٨ .

(٣) أخرجه مسلم رقم (٥٧ ، ٥٨) كتاب الفضائل .

قطُّ فقال : « لا » [(١)] .

ولما قَفَلَ رسول الله ﷺ من غزوة حنين تبعه الأعراب يسألونه ، فألجؤوه إلى شجرةٍ ، فَخَطَفت رداءه ، وهو على راحلته ، فقال : « **ردوا علي ردائي أتخشون علي البخل ؟ فوالله لو كان لي عدد هذه العضاه** [(٢)] **نَعمًا ، لقسمته بينكم ، ثم لا تجدوني بخيلاً ولا جبانًا ولا كذوبًا** » [(٣)] .

وكان ﷺ يؤثر على نفسه ، فيعطي العطاء ويمضي عليه الشهر والشهران لا يوقد في بيته نار [(٤)] .

أهدت امرأة إلى النبي ﷺ شملة منسوجة ، فقالت : « يا رسول الله أكسوك هذه فأخذها النبي ﷺ ، محتاجاً إليها ، فلبسها ، فرآها عليه رجل من الصحابة فقال : يا رسول الله ما أحسن هذه فاكسنيها ، فقال : « **نعم** » فلما قام النبي ﷺ لامه أصحابه ، فقالوا : ما أحسنت حين رأيت النبي ﷺ أخذها محتاجًا إليها ثم سألته إياها ، وقد عرفت أنه لا يسأل شيئًا فيمنعه ، فقال : رجوت بركتها حين لبسها النبي ﷺ لعلي أكفَّنُ فيها » [(٥)] .

---

(١) أخرجه مسلم رقم (٥٦) كتاب الفضائل .

(٢) العضاه : الشجرة الغليظة الثابتة الأصل .

(٣) أخرجه البخاري رقم (٢٨٢١) كتاب الجهاد والسير . ورقم (٣١٤٨) كتاب فرض الخمس .

(٤) لحديث عائشة رضي الله عنها قالت : إن كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال ، ثلاثة أهلّة في شهرين وما أوقد في أبيات رسول الله ﷺ نار » أخرجه البخاري رقم (٦٤٥٩) كتاب الرقاق . ومسلم رقم (٢٨) كتاب الزهد .

(٥) أخرجه البخاري رقم (٦٠٣٦) كتاب الأدب .

وكان كرمه ﷺ كرمًا في محله ، ينفق المال لله وبالله ؛ إما لفقير ، أو محتاج ، أو في سبيل الله ، أو تأليفًا على الإسلام ، أو تشريعًا للأمة .

* * *

وفي الشجاعة : كان ﷺ أشجع الناس ، وأمضاهم عزمًا وإقدامًا ، كان الناس يفرون وهو ثابت ، قال العباس بن عبدالمطلب ـ رضي الله عنه ـ : لما التقى المسلمون والكفار ـ يعني في حنين ـ وولى المسلمون مدبرين ، طفق رسول الله ﷺ يركض بغلته نحو الكفار وأنا آخذ بلجامها أكفّها إرادة ألاّ تسرع ، وكان يقول حينئذ : « **أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبدالمطلب** »[1] .

وقال علي ـ رضي الله عنه ـ « **كُنَّا إذا احمرَّ الباسُ ، ولقي القومُ القومَ ، اتَّقينا برسول الله ﷺ فما يكون أحدٌ أقربَ إلى العدوِّ منه** »[2] .

وقال أنس ـ رضي الله عنه ـ : « كان رسول الله ﷺ أحسن الناس ، وكان أجود الناس ، وكان أشجع الناس ، ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة ، فانطلق ناسٌ قِبَل الصوت ، فتلقاهم رسولُ الله ﷺ راجعاً ـ وقد سبقهم إلى الصوت ـ وهو على فرس لأبي طلحة عُرْي ، في عنقه السيف وهو يقول : « **لم تراعُوا**[3] **لم تُرَاعُوا** » قال وجدناه

---

(١) أخرجه مسلم رقم (٧٦) كتاب الجهاد والسير . وأخرجه البخاري بنحوه من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه رقم (٢٨٦٤) كتاب الجهاد . ورقم (٤٣١٥ ، ٤٣١٧) كتاب المغازي .

(٢) أخرجه أحمد في المسند (١/ ١٥٦) وبنحوه مسلم رقم (٧٩) كتاب الجهاد من حديث البراء رضي الله عنه .

(٣) قوله : لم تراعوا : أي لا تخافوا والعرب تتكلم بهذه الكلمة واضعه « لم » موضع «لا» .

بحرًا (١) ، أو إنه لبحر وكان فرسًا يُبطَّأ » (٢) .

أما لينُه وحسن خلقه فقد كان ﷺ لطيفًا رحيمًا ، فلم يكن فاحشًا ولا متفحشًا (٣) ، ولا صخَّابًا في الأسواق ، ولا يجزي السيئة بالسيئة ، ولكن يعفو ويصفح (٤) ، قال أنس ـ رضي الله عنه ـ : « خدمتُ رسول الله ﷺ عشر سنين ، والله ما قال لي أفٍّ قطُّ ، ولا قال لي لشيء : لِمَ فعلتَ كذا ؟ وهلاَّ فعلتَ كذا ؟ » (٥) .

---

(١) قوله : وجدناه بحرًا : أي وجدوا الفرس سريع الجري بعد أن كان يبطأ .

(٢) أخرجه البخاري رقم (٢٩٠٨) كتاب الجهاد والسير . ورقم (٦٠٣٣) كتاب الأدب . ومسلم رقم (٤٨) كتاب الفضائل .

قال النووي في شرح صحيح مسلم (١٥ ، ٦٧ ، ٦٨) :

وفيه فوائد : منها بيان شجاعته ﷺ ، من شدة عجلته في الخروج إلى العدوّ قبل الناس كلّهم ، بحيث كشف الحال ، ورجع قبل وصول الناس . وفيه بيان عظيم بركته ومعجزته في انقلاب الفرس سريعًا بعد أن كان يبطأ ، وهو معنى قوله : وجدناه بحرًا : أي واسع الجري . أ . هـ .

(٣) لحديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنه . أخرجه البخاري رقم (٣٥٥٩) كتاب المناقب . ورقم (٦٠٢٩ ، ٦٠٣٥) كتاب الأدب . ومسلم رقم (٦٨) كتاب الفضائل .

(٤) لحديث عطاء بن يسار قال : لقيت عبدالله بن عمرو فقلت : أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة فقال : أجل والله أنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في الفرقان : ﴿ يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا ﴾ وحرزًا للأميين ، أنت عبدي ورسولي ، سميتُك المتوكّل ، ليس بفظّ ولا غليظ ، ولا سخَّابًا بالأسواق ، ولا يدفع السيئة بالسيئة ، ولكن يعفو ويغفر . . . . » أخرجه البخاري رقم (٢١٢٥) كتاب البيوع . ورقم (٤٨٣٨) كتاب التفسير .

(٥) أخرجه البخاري رقم (٦٠٣٨) كتاب الأدب . ومسلم رقم (٥١) كتاب الفضائل .

وكان ﷺ يمازح أصحابه ويخالطهم ويحادثهم ، ويداعب صبيانهم ، ويضعهم في حجره ، وربما بال الصبي في حجره فلا يعنف [١] .

وكان ﷺ يجيب دعوة الحر والعبد ، والغني والفقير ، ويعود المريض في أقصى المدينة ، ويقبل عذر المعتذر [٢] ، وكان يسمع بكاء الصبي وهو يصلي بالناس فيسرع في الصلاة مخافة أن تُفتن أمه [٣] .

و « كان يصلي وهو حاملٌ أمامة بنت زينب بنت رسول الله ﷺ ، ولأبي العاص بن الربيع ، فإذا قام حملها ، وإذا سجد وضعها !! » [٤] .

قال أبو بريدة : كان رسول الله ﷺ يخطبنا إذ جاء الحسن والحسين

---

(١) فقد أتت أم قيس بنت محصن بابن لها لم يأكل الطعام إلى رسول الله ﷺ فأجلسه ﷺ في حجره فبال على ثوبه ، فدعا بماء فنضحه ولم يغسله ، أخرجه البخاري رقم (٢٢٣) كتاب الوضوء . ومسلم رقم (١٠٤) كتاب الطهارة .

(٢) وهذا كلّه من تواضعه ﷺ . قال ابن القيم في « مدارج السالكين » (٢/ ٣١٠) عن تواضع النبي ﷺ : « وكان النبي ﷺ يمرُّ على الصبيان فيسلّم عليهم ، وكانت الأمة تأخذ بيده فتنطلق به حيث شاءت ، وكان ﷺ إذا أكل لعق أصابعه الثلاثه ، وكان ﷺ في بيته في خدمة أهله ، ولم يكن ينتقم لنفسه قط ، وكان ﷺ يخصف نعله ، ويرقع ثوبه ، ويحلب الشاة لأهله ، ويعلف البعير ، ويأكل مع الخادم ، ويجالس المساكين ، ويمشي مع الأرملة واليتيم في حاجتهما ، ويبدأ من لقيه بالسلام ، ويجيب دعوة من دعاة ولو إلى أيسر شيء . وكان ﷺ هيّن المؤونة ، ليّن الخلق ، كريم الطبع ، جميل المعاشرة ، طلق الوجه ، بسّامًا ، متواضعًا من غير ذلة ، جوادًا من غير سرف ، رقيق القلب رحيمًا بكل مسلم ، خافض الجناح للمؤمنين ، لين الجانب لهم . أ. هـ .

(٣) أخرجه البخاري رقم (٧٠٧ ، ٧٠٨ ، ٧٠٩ ، ٧١٠) كتاب الأذان . ومسلم رقم (١٩٢) كتاب الصلاة .

(٤) أخرجه البخاري رقم (٥١٦) كتاب الصلاة . ورقم (٥٩٩٦) كتاب الأدب . ومسلم رقم (٤١ ، ٤٢ ، ٤٣) كتاب المساجد .

ـ عليهما السلام ـ عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران [١] ، فنزل رسول الله ﷺ من المنبر فحملهما ووضعهما بين يديه ، ثم قال : « **صدق الله** : ﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾ [٢]، **نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران، فلم أصبر حتى قطعتُ حديثي ورفعتهما** » [٣] .

قال الحسين بن عليّ ـ رضي الله عنهما ـ : سألت أبي عن سير النبي ﷺ في جلسائه ، فقال : « كان النبي ﷺ دائم البشر ، سهل الخلق ، لين الجانب ، ليس بفظٍّ ولا غليظ ولا صخاب ، ولا عياب، ولا مشاح [٤]، يتغافل عما لا يشتهي ، ولا يؤيسُ منه راجِيه ، ولا يُخَيِّبُ فيه ، قد ترك نفسه من ثلاث : المراء ، والإكثار ، وما لا يعنيه ، وترك الناس من ثلاث : كان لا يذمُّ أحدًا ولا يعيبُهُ ، ولا يطلب عورته ، ولا يتكلّم إلا فيما رَجَا ثوابه ، وإذا تكلّم أطرق جلساؤه ، كأنما على رؤوسهم الطَّيْرُ ، فإذا سكت تكلموا ، لا يتنازعون عنده الحديث ، مَنْ تكلم عنده أنصتوا له حتى يفرغ ، حديثُهُم عنده حديث أولهم ، يضحكُ مما يضحكون منه ، ويتعجبُ مما يتعجبون منه ، ويصبرُ للغريب على الجفوة [٥] ، في منطقه ومسألته ، حتى إن كان أصحابه ليستجلبونهم [٦] ، ويقول : إذا رأيتم

---

(١) يعثران : من العثرة أي يمشيان مشي صغير يميل في مشيه .

(٢) سورة الأنفال ، الآية : ٢٨ .

(٣) أخرجه الترمذي رقم (٣٧٧٤) كتاب المناقب . وقال : حسن غريب إنما نعرفه من حديث الحسين بن واقد . وأخرجه النسائي رقم (١٤١٢) كتاب الجمعة . وأبو داود رقم (١١٠٩) كتاب الصلاة .

(٤) مشاحّ : مفاعلة من الشحّ وهو شدة البخل . (٥) الجفوة : الغلظة وسوء الخلق .

(٦) أي كان الصحابة يتمنون أن يأتي هؤلاء الأعراب ليستفيدوا من أسئلتهم لرسول الله ﷺ وهذا يدل على شدة توقير الصحابة لرسول الله ﷺ وهيبتهم له .

طالب حاجة يطلبها فأرفدوه [1] ، ولا يقبل الثناء إلا من مكافئ ، ولا يقطع على أحدٍ حديثَهُ حتى يجوز ، فيقطعه بنهي أو قيام » [2] .

* * *

وفي الزهد والتقلل من الدنيا : كان ﷺ أزهد الناس في الدنيا وأرغبهم في الآخرة ، خيره الله تعالى بين أن يكون ملكًا نبيًا أو عبدًا نبيًا ، فاختار أن يكون عبدًا نبيًا ، وخيّره بين أن يعيش في الدنيا ما شاء أن يعيش وبين ماعند الله فاختار ماعند الله . قال أنس : دخلت على النبي ﷺ وهو على سرير مرمل بالشريط وتحت رأسه وسادة من أدم حشوها ليف ، فدخل عليه نفر من أصحابه ودخل عمر ، فانحرف رسول الله ﷺ فلم يَرَ عمر بين جَنْبَيه وبين الشريط ثوبًا ، وقد أثر الشريط بجنب رسول الله ﷺ فبكى عمر ، فقال له النبي ﷺ : « **ما يبكيك يا عمر** » ؟ قال : والله إلا أن أكون أعلم أنك أكرم على الله ـ عز وجل ـ من كسرى وقيصر ، وهما يعبثان في الدنيا فيما يعبثان فيه ، وأنت يا رسول الله بالمكان الذي أرى ! فقال النبي ﷺ : « **أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة** » ؟ **قال عمر : بلى ، قال:« فإنه كذاك »** [3] .

---

(١) فأرفدوه : أي فأعينوه على بلوغ حاجته .

(٢) أخرجه الترمذي في الشمائل رقم (٣٥٢) وفي إسناده أبو عبدالله التميمي من ولد أبي هالة مجهول كما قال الحافظ . وفيه جميع بن عمير بن عبدالرحمن العجلي متهم . قال الحافظ في التقريب ؟ رافضي ضعيف » والرواي عن الحسن بن علي لايعرف . انظر الشمائل المحمدية للترمذي بتحقيق : سيد بن عباس الجليمي ص (٣٤ ، ٣٥) .

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٣/ ١٣٩) . وابن حبان في صحيحه رقم (٦٣٦٢) كتاب =

هذه دررٌ من أخلاق النبي ﷺ ، فاتخذوها نبراسًا لكم تأتمون به ، وتأخذون بهديه وتسيرون على منهاجه فتهتدوا ، فإن الله جبله على مكارم الأخلاق ، وأمرنا بالاقتداء به ، قال الله تعالى : ﴿ **فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون** ﴾[1] .

رزقنا الله وإياكم محبة هذا النبي ﷺ ووفقنا إلى اتباع سنته وهديه حتى يأتينا اليقين .

﴿ **تمت** ﴾

= التاريخ . وأبو يعلى في مسنده رقم (٢٧٨٣) وذكره الحافظ الهيثمي في : مجمع الزوائد (١٠/٣٢٦) وقال : رجاله رجال الصحيح غير مبارك بن فضالة .

(١) سورة الأعراف ، الآية : ١٥٨ .

فهرس المحتوى

الموضوع	الصفحة